لعمرك إن الموت ما اخطا الفتى
لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى مايشا يوما يقده لحتفه
ومن يك فى حبل المنية ينقد

وقد استطاع قراء كثيرون إغفال مسير الأصوات والامتدادات المسترخية فى البيتين ، وأذعنوا للمعنى الظاهر مجردا من لغته إن صح هذا التعبير ، ومن ثم بدا فى البيتين لون من اليأس المظلم ، ولكن الدكتور طه قرأ البيتين فقال : هذا تشبيه صارم لايدع سبيلا الى الأمل ، ولكنه لايشق عليك باليأس القاتم ، وإنما هو موئس فى شىء من الدعة والحلاوة والإذعان المحبب الى النفوس .

وعلى هذا النحو عظم الفرق بين قراءة الدكتور طه لمطولة طرفة وقراءة كثيرين رأوا فيها مايشتهون من التغنى بالعدم ، فقد كان العدم بدعا فى بعض الأوقات ، أو كان بضاعة مجتلبة يعرضها النقاد فى سوق اللغة العربية القديمة ، هؤلاء لايعرفون للفظ الجزل والأسلوب الرصين والأسر القوى وظيفة . أو قل إننا نهمل اللغة بعض الإهمال .

فإذا عدنا الى الدكتور طه وجدنا اللغة تملى عليه طائفة من القضايا تبدو لنا غريبة بعض الغرابة ، لأننا مفتونون بفكرة البداوة الغليظة أو فكرة النشوة الحسية العارمة أو فكرة اليأس والعدم والموت . وقد نجمع بين النشوة الحسية واليأس فى إطار واحد ، ومن ثم يستحيل أمامنا طرفة شاعرا مختلفا جد الاختلاف عما قرأه الدكتور طه . ولكل جيل مايشغله ، فقد اشتغل جيل الدكتور طه كله بالنمو والنهوض والمولد الجديد وروح الثقافة ، واشتغل جيل ثان بالعدم والبؤس واليأس وجعل هذا كله مثلا وغاية .

والمهم هو أن الدكتور طه يسوق لنا هذه الأبيات التى ينبغى أن أسوقها اليك لتعرف كيف استنبط منها الدكتور طه شخصية مثقفة جذابة يجتمع فيها الحياء والحزم معا :

إذا القوم قالوا من فتى خلت اننى
عنيت فلم اكسل ، ولم اتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة
ولكننى متى يسترفد القومن ارفد